الأديانُ والحرِّيَّاتِ

إنسانويَّةُ الاعتدالِ الشاملةُ

نظرةٌ لمستقبلٍ أفضلَ

أنطوان قربان(*)

عنوانُ هذه الحلقةِ «الأديانُ والحرّياتُ» يربكني نوعًا ما؛ لأنَّه يطرحُ إشكاليّةً جدليّةً بينَ الأديانِ أو بينَ الدِّينِ بمعناه الفلسفيِّ، والحريّةِ الَّتي نعرف عنها من حيثُ المبدأُ ومن حيثُ الوجودُ بأنّها مكوِّنةٌ للإنسانِ، وليست صفةً مضافةً للفردِ البشريِّ الَّذي يتمتَّعُ بحرِّياتٍ من حيثُ الدَّورُ بفعلِ حقوقِه الأساسيَّةِ. إنسانويَّةُ الاعتدالِ الشاملةُ: نظرةٌ لمستقبلٍ أفضلَ

هل هناكَ تناقضٌ ما بين حُرِّيَّةِ الإنسانِ الوجوديّةِ والدِّينِ؟

هل هناك قمعٌ حتميٌّ أو تعدٍّ لا مفرَّ منه من الأديانِ على الحرِّياتِ الفرديَّةِ؟

للبحثِ في هذا التساؤلِ، أنطلقُ من كوني مواطنًا لبنانيًّا عربيًّا، أنتمي إلى الدينِ المسيحيِّ الَّذي لم أخترْه، ولكن وَرِثتُه من أبي وأمي، وترعرعت في كَنَفِ الجماعةِ المسيحيَّةِ في بلدي لبنان، وفي مدينتي حيث خصوصيَّاتُ عيشِنا المشتركِ تجعلُ من الثقافةِ الإسلاميّةِ جزءًا من هُوِيَّتي المسيحيَّةِ كما هي الحالُ عند أخي اللبنانيِّ المسلمِ بالنسبةِ إلى الثقافةِ المسيحيَّةِ.

اعتباراتٌ مختلفةٌ:

من المستحيلِ أن يتصوَّرَ عاقلٌ أنَّ الدينَ، كإيمانٍ باللهِ وبالآخرةِ، هو مناقضٌ للحرِّيةِ البشريَّةِ الوجوديَّة؛ لأنَّ الأديانَ كلَّها، وخاصَّةً السَّماويَّةَ، تعلنُ بصراحةٍ وشفافيةٍ عن هدفِها؛ مواكبةِ الفردِ في مسيرتِه من المهدِ إلى الجنّةِ، نعم إلى الجنّةِ وليسَ إلى القبرِ.

لكنَّ الأديانَ هي أيضًا أحداثٌ اجتماعيَّةٌ ووقائعُ تاريخيّةٌ لها سُلَّمُ قِيَمٍ ومؤسّساتٌ وأنظمةٌ، لها عقائدُها وتقاليدُها وطقوسُها وشرائعُها، تؤدِّي دَورًا أساسيًّا في مجالِ الحضاراتِ والثقافاتِ.

هي تواكبُ مسيرةَ الجماعةِ المؤمنةِ عبرَ التاريخِ، مؤثِّرةً بشكلٍ مباشرٍ وغيرِ مباشرٍ في تدبيرِ المجتمعاتِ وإدارةِ شئونِ الشعوبِ، وتتمتّعُ المؤسّساتُ الدينيّةُ بسلطانٍ في مجالاتٍ عدّةٍ؛ لذلكَ فإنّها تمثّلُ مصلحةَ الجماعةِ الّتي في بعضِ الأحيانِ تتناقضُ مع مصلحةِ الفردِ وحرّياتِه، ناهيكَ عن أنّها أقامتْ -وتقيمُ- عَلاقاتٍ عدّةً مع السلطةِ السياسيَّةِ القائمةِ.

على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ، أوصى السيِّدُ المسيحُ بفصلِ الإيمانِ باللهِ عن الشأنِ السياسيِّ «أعطوا ما لقيصرَ لقيصرَ وما للهِ للهِ» (إنجيل مرقس ١٧:١٢).

أمّا جوهرُ دَورِ الوجودِ المسيحيِّ ومعناه في بيئةٍ ما، فهو مدوَّنٌ في نصِّ «الرسالة إلى ديوغنيطوس» الَّذي نعتبرُه من أعرقِ النصوصِ المسيحيّةِ من القرنِ الثاني الميلادي، والرسالةُ من تأليفِ إنسانٍ مسيحيٍّ من بلادِ الشامِ مجهولِ الهُويَّةِ إلى صديقٍ وثنيٍّ، ديوغنيطوس، يعرّفُه فيها على الجماعةِ المسيحيةِ القاطنةِ في وسَطِ

أغلبيّةٍ وثنيّةٍ لا تفهمُ الإيمانَ المسيحيَّ وتضطهده أحيانًا، يفضي الكاتبُ بمكنوناتِ فكرِه لقارئه قائلًا:

«المسيحيّونَ لا يتميَّزونَ عن باقي الناسِ في أوطانِهم، لا في لغتِهم، ولا في طريقةِ حياتِهم، ليسَ لهم مُدُنٌ غيرُ الَّتي لكم، ولا يوجدُ لهم لغةٌ غيرُ الَّتي تتكلَّمونَ بها، ولا يتميَّزونَ عن غيرِهم، منتشرونَ في المدنِ الروميّةِ - الإغريقيَّةِ كما في المدنِ الغريبةِ، حيث يسكنونَ، يتماثلونَ بلباسِهم ومأكلِهم وطريقةِ حياتِهم بكلِّ الناسِ، يحترمونَ الأعرافَ المتَّبعةَ، ولكنَّهم يُبهِرونَ الآخرينَ بالتزاماتِهم الأخلاقيَّةِ، يعيشونَ في مُدُنِهم، ويأخذونَ على عاتِقهم حياةَ المدينةِ كمواطنينَ أوفياءَ»(*).

نفهم إذًا أنَّ منبرَ الخطابِ المسيحيِّ في زمنِ السِّلمِ هو كلُّ مجتمعٍ أهليٍّ، أو كلُّ جماعةٍ مدينيّةٍ، يعكسُ هذا الخطابُ النظرةَ المسيحيَّةَ إلى الكونِ، الَّتي تَنبُذُ كلّيًّا الفئويةَ، وتركِّزُ في الحياةِ العامةِ على بعضِ الثوابتِ الَّتي لا تتزعزعُ، وتتلخّصُ في باقةٍ من القيمِ:

«كرامةٌ - حريةٌ - حقوقٌ - عدالةٌ - سلامٌ»، هذا من حيثُ الوجودُ، أما من حيثُ الدُّورُ فإنَّني ألخِّصها بعبارةٍ واحدةٍ: «المواطنة».

ولكن في زمنِ المحنةِ، فمنبرُ الخطابِ المسيحيِّ هو دائمًا صليبُ الضحيةِ البريئةِ، أيِّ ضحيّةٍ مهما كان انتماؤها؛ لأنّ كلَّ ضحيّةٍ بريئةٍ هي صورةٌ عن يسوعِ الناصريِّ المصلوبِ.

أيُّها الأحبّةُ.

ليست الحريَّةُ والكرامةُ صفتينِ مضافتينِ للإنسانِ، بل هما تكوِّنانه، وهما تسبقانِ الانتماءَ إلى دِينٍ ما، أو إلى هُوِيَّةٍ وطنيَّةٍ ما.

اسمحوا لي بأن أستشهدَ ببعضِ الآياتِ المقتَطفةِ من سفرِ النبيِّ أرميا في الكتابِ المقدّسِ، ينقلُ لنا أرميا حوارًا مذهلًا بينه وبين الوحي الإلهيِّ ويقولُ:

فَقُلْتُ: (يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لاَ أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لأَنِّي وَلَدٌ). (أرميا ٦:١)

فَقَالَ الرَّبُّ لِي: (لاَ تَقُلْ إِنِّي وَلَدٌ). (أرميا ٧:١)

لاَ تَخَفْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ لأُنْقِذَكَ. (أرميا ٨:١)

(قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ) (ارميا ٥:١)

في ظلمةِ الأحشاءِ يتمتّعُ الفردُ البشريُّ قبلَ اسمه وقبلَ انتمائِه إلى جماعةٍ مؤمنةٍ، بقُدسيَّةٍ مكوِّنةٍ له، وهذا هو تحديدًا مفهومُ الكرامةِ المعلَنُ عنه في دِيباجةِ شِرعةِ حقوقِ الإنسانِ (سنة ١٩٤٨).

ثقافةُ الاستنارةِ أو التنويرِ أفرزت مفهومَ «فرد الحداثةِ» واعترفت بكرامتِه الَّتي لا تخترقُ معتبرةً إياها من الموضوعاتِ الطبيعيّةِ، وقالت الحداثةُ بسياقِ الفيلسوفِ كانط (Kant) إنَّ الطبيعةَ الإنسانيةَ هي أقدسُ شيءٍ في الكائنِ البشريِّ، لكنَّ الحداثةَ الإنسانويةَ هذه نَسِيَت أو تناست أنَّ آباءَ الكنيسةِ منذ القرن الثاني هم أوّلُ من تكلَّم عنها معتبِرينَ أنَّ «مجدَ اللهِ على الأرضِ يدعى كرامةَ الإنسانِ»، بالرغمِ منِ

التباساتِها وتناقضاتِها، يمكنُنا اعتبارُ الحداثةِ بأنَّها جسَّدت إلى حدٍّ بعيدٍ قيم النظرة المسيحيَّة إلى الإنسانِ.

إن كنتَ مؤمنًا فلكَ الحقُّ أن تعتبرَ كرامةَ الإنسانِ وحريتَه انعكاسًا لمجدِ اللهَّ، وإن كنتَ غيرَ مؤمنٍ فأنتَ حرٌّ أيضًا في أن تعتبرَ الكرامةَ نفسَها من الموضوعاتِ الطبيعيَّةِ، ولكن في كلا الحالتينِ أنت مُلزَمٌ أن تصونَ كرامةَ كلِّ فردٍ، وحرياتِه وحقوقَه، وأن تحترمَها.

هذا ما يمكنُنا أن نُسمِّيَه الإنسانويَّةَ الشاملةَ حيثُ الإنسانُ ليسَ كائنًا مُستعبَدًا من قِبَلِ اللهَّ، وليست «الأنا» البشريَّةُ في مواجهةٍ دائمةٍ مع الذاتِ الإلهيةِ.

هناك نفحٌ إنسانيٌّ واضحٌ في تعاليمِ السيِّدِ المسيحِ؛ إذ لم يُعرِّف يسوعُ الناصريُّ عن ذاتِه في النصوصِ الإنجيليّةِ إلا بعبارةِ «ابن الإنسانِ».

سؤال: هل حقًّا جسَّدت المجتمعاتُ المسيحيّةُ عبرَ التاريخِ هذه المبادئَ الساميةَ؟

الجواب: كلا ليس دائمًا.

السيِّدُ المسيحُ قال لجماعتِه بفصلِ الإيمانِ عن السياسةِ، ومنحِها في نفسِ الوقتِ سلطانَ الربطِ والحلِّ: (مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ) (إنجيل يوحنا ٢٣:٢٠).

لا حاجةَ بالتذكيرِ كيف استعملت أحيانًا المؤسساتُ الدينيّةُ المسيحيَّةُ سلطانَها هذا لمصلحةِ سلطتِها هي، أو لمصلحةِ سلطةِ الملوكِ والقياصرةِ، فتاريخُ المجتمعاتِ المسيحيةِ حافلٌ بأمثالٍ عديدةٍ، وذلكَ بفضلِ تفسيرِ تعاليمِ المسيحِ والرسلِ والآباءِ

بشكلٍ تعسُّفيٍّ خدَمَ أحيانًا مصالحَ الدنيا، كم منِ اجتهادٍ لأهلِ العلمِ واللاهوتِ حلَّلَ العنفَ وقدَّسَ الحروبَ وسفكَ الدماءَ وقمَعَ الحرِّياتِ وظلَمَ الناسَ!!

اللائحةُ طويلةٌ، ولا حاجةَ لسردِها بالتفصيلِ، أذكر فقط كيفَ أنَّ محاكمَ التفتيشِ كانت تُعذِّبُ المتَّهَمِينَ بالهرطقةِ أوِ الردَّةِ بكلِّ صفاءِ الضميرِ؛ لأنَّها اعتبرت أنَّ عذابَ الجسدِ هو عملُ خيرٍ؛ لكونِه وسيلةَ خلاصٍ للنفسِ كي تتحرَّرَ من الشرِّ الَّذي يعتقلُها عندما تعترفُ بما هي مُتَّهَمةٌ به.

إنسانويةُ الاعتدالِ الشاملةُ:

لم يكن أحدٌ يتصوَّرُ أنَّ البشريةَ ستصلُ إلى ما وصلنا إليه اليومَ، ركيزةُ قناعةِ الفردِ بنفسِه لم تعد هذه «أنا» الحداثة، لقد استبدلناها «بأنا» جماعيةٍ غرائزيةٍ قبائليةٍ، ولا يَسَعُني إلا أن أقولَ: بربريةٍ.

حجَرُ الزاويةِ في العَلاقاتِ بينَ الناسِ لم يعدْ هذه الألفةَ الطبيعيةَ بيننا، استبدلنا مقولةَ الفيلسوفِ ديكارت «أنا أفكرُ إذًا أنا موجودٌ» بمقولةٍ غرائزيةٍ قاتلةٍ «أنا أكره إذًا أنا موجودٌ»، فماذا فعلنا بكلِّ هذه القرونِ من مسيراتِنا الثقافيةِ نحو الأفضلِ والأسمى للإنسانِ؟

ماذا فعلنا بهذا الإطارِ المميِّزِ للعيشِ سويًّا: «المدينة؟» أين أصبحت المدينةُ –هذه الأحشاءُ– الَّتي تحتضنُ الجميعَ المختلفينَ في كنفِ المواطنةِ؟

في فضاءِ المدينةِ أنتَ أنتَ.... ربِّي كما خلقتني... تمامًا كما كنتَ في ظلمةِ الأحشاءِ الَّتي أنجبتكَ والَّتي يذكرها كتابُ النبيِّ أرميا.

وهذا تمامًا ما حصلَ يوم ١٤ آذار ٢٠٠٥م في بلدي لبنان، بعدَ مقتلِ المغفورِ له رفيقِ الحريريِّ رئيسِ الوزراء الأسبقِ. ١,٥٠٠,٠٠٠ شخصٍ؛ أي ثلثُ الشعبِ اللبنانيِّ توافدوا تلقائيًّا إلى وسَطِ بيروت، ومَلَئوا ساحاتِها، أتوا من كَنَفِ طوائِفهم وعشائِرهم وأريافِهم كأطفالٍ غيرِ ناطقينَ بصوتِهم الفرديِّ، كما يقولُ أرميا النبيُّ. وفي وسَطِ بيروت، في هذه الأحشاءِ، وُلدوا كأفرادٍ مواطنينَ، وتكلّمَ كلُّ واحدٍ منهم كلبنانيٍّ، ولكنّ ويا للأسفِ المدينةُ ضعيفةٌ وهشّةٌ إذا قسناها بمعيارِ القوةِ الجسديةِ؛ فضاءُ المدينةِ هو كاللحمِ البشريِّ، عُرضةٌ للمرضِ الفتّاكِ؛ لذلكَ تستطيعُ الفتنةُ أن تَقضِيَ عليها.

ولكن وبالرغمِ من الصُّعوباتِ الحاليةِ لا مكانَ للإحباطِ.

عالمُنا مقسومٌ اليومَ بين شريحةٍ معتدلةٍ وشريحةٍ متطرّفةٍ، وهذا الانقسامُ يخترقُ كلَّ المجتمعاتِ والشعوبِ وكلَّ الجماعاتِ الدينيةِ والطائفيةِ.

يتوجّبُ علينا نحنُ المعتدلينَ حمايةَ الإنسانِ الّذي كرَّمه اللهُ أشرفَ تكريمٍ، يتوجّبُ علينا حمايةُ ثقافةٍ إنسانويّةٍ.

عملاقُ عصرِ النهضةِ (بيكو ديللا ميراندوللا) (Pico Della Mirandola) يشهدُ للعربِ في كتابِه الشهيرِ «عن كرامةِ الإنسانِ» (De Dignitatae Hominis) الّذي أَلّفَهُ عن عُمُرِ (٢٤) سنةً في أواخرِ القرنِ الخامسَ عشرَ: «لقد قرأتُ في كتبِ العربِ أنّه لا يوجدُ على الأرضِ شيءٌ أروعُ من الإنسانِ»... ومن

هنا انطلقت الحركةُ الإنسانويةُ في الغربِ، فلماذا يمنعنا أن نُعِيدَ لها كلَّ اعتبارِها في شرقِنا العربيِّ؟

دعوني أُردِّد أمامَكم دعوةَ صديقي المفكرِ السياسيِّ سمير فرنجية: «أيُّها المعتدلونَ في العالمِ اتَّحدوا».

وأُثنِّي عليهِ بدعوةٍ من أجلِ تحصينِ كرامةِ الإنسانِ: يا أهلَ الاعتدالِ تعالَوا كي نُعلِنَ مجدَ اللهِّ على الأرضِ، مَن يريدُ أن يُعلنَ هذا المجدَ دينيًّا فَليَفعَل على طريقتِه، ولكن علينا كلِّنا ودون استثناءٍ احترامُ كرامةِ الإنسانِ وحرِّياتِه في أوطانِنا، وأوّلُ هذه الحرِّياتِ وأساسُها هي حرِّيَّةُ المعتَقَدِ.

حينئذٍ نستطيعُ أن نقولَ بكلِّ فخرٍ: الإنسانُ الحرُّ يتشرَّفُ بمواطَنةٍ قائمةٍ على القانون، وليسَ على الهُوِيَّةِ.

الأزهر الشريف في القاهرة في ٢٨ شباط (فبراير) ٢٠١٧ م.